ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قضية من قضايا أصول الكون :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

يخبرنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ أنه خلق السموات والأرض وما بينهما لخدمة الإنسان ، وهو المكرَّم الأول في هذا الكون ، وجميع الأجناس في خدمته حيواناً ونباتاً وجماداً ، فهو سيد في هذا الكون ، لكن هل أخذ هذا السيد سيادته بذاته وبفعله ؟ لا إنما أخذها بفضل الله عليه ، فكان عليه أولاً أنْ يشكر مَنْ أعطاه هذه السيادة على غيره .

وهذا السيد عمره ومروره في الحياة عبور ، فعمره فيها يطول أو يقصر ينتهي إلى الموت ، في حين أن الجمادات التي تخدمه عمرها أطول من عمره ، وهي خادمة له ، فكان لزاماً عليه أنْ يتأمل هذه المسألة : كيف يكون عمر الخادم أطول وأبقى من عمر السيد المخدوم ؟

إذن : لابد أن لي عمراً آخر أطول من هذا ، عمراً يناسب تكريم الله لي ، ويناسب سيادتي في هذا الكون ، إنها الآخرة حيث تندثر هذه المخلوقات التي خدمتني في الدنيا وأبقى أنا ، لا أعيش مع الأسباب ، إنما مع المسبب سبحانه ، فلا أحتاج إلى الأسباب التي خدمتني في الدنيا ، إنما أجد كل ما أشتهيه بين يديَّ دون تعب ودون سَعْي ، وهذه ارتقاءات لا تكون إلا لمَنْ يطيع المرقي المعطي .

لذلك ، الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يلفتنا ويقول : صحيح أنت أيها الإنسان سيد هذا الكون وكل مخلوقاتى فى خدمتك ، لكن خَلْقها أكبر من خَلْقك :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

لماذا ؟ لأن للناس أعماراً محددة ، مهما طالت لا بُدَّ أنْ تنتهى إلى أجل ، ثم إن هذه الأعمار لا تَسْلَم لهم ، إنما تنتابها الأغيار ، فالغنىّ قد يفتقر ، والصحيح قد يمرض ، والقوى قد يضعف ، أمَّا الشمس والقمر والنجوم والكون كله فلا يتعرض لهذه الأغيار ، فما رأينا الشمس أو القمر أو النجوم أصابتها علة وانتهت كانتهاء الإنسان ، ثم أنت لستَ مثلها فى العظمة المستوعبة ؛ لأن قصارى ما فيك أنك تخدم نفسك أو تخدم البيئة التى حولك ، أمَّا هذه المخلوقات فتخدم الكون كله .

فإذا أقرَّ ـ حتى الكفار ـ بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض إذن : فهى دليل أول على وجود الحق تبارك وتعالى .

ومسألة خَلْق السماوات والأرض من الأشياء التى استأثر الله بعلمها وليس لأحد أنْ يقول : كيف خُلقت ولا حتى كيف خُلق الإنسان ؛ لأن مسائل الخَلْق لم يشهدها أحدٌ فيخبرنا بها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١) ﴾ [الكهف]

فسماهم الله مُضلِّين ، والمضلّ هو الذى يجنح بك إلى طريق باطل ، ويصرفك عن الحق ، وقد رأينا فعلاً هؤلاء المضلِّين وسمعنا افتراءاتهم فى مسألة خَلْق السموات والأرض .

إذن : خَلْق السماوات والأرض مسألة لا تُؤخَذ إلا ممَّنْ خلق ؛

لذلك قَصَّ لنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قصة خَلْق آدم ، وقصَّ لنا قصة خلق السماوات والأرض ، لكن الخَلْق حدث وفعل ، والفعل يحتاج إلى زمن تعالج فيه الحدث وتزاوله ، والإشكال هنا فى قوله تعالى ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٤)﴾ [السجدة] ، فهل الحدث بالنسبة لله تعالى يحتاج إلى زمن ؟

الفعْل من الإنسان يحتاج إلى علاج يستغرق زمناً ، حيث نوزع جزئيات الفعل على جزئيات الزمن ، أما فى حقه تعالى فهو سبحانه يفعل بلا علاج للأمور ، إنما يقول : للشىء كن فيكون ، أما قوله تعالى ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٤)﴾ [السجدة] فقد أوضحناها بمثال ، ولله المثل الأعلى .

قلنا : أنت حين تصنع الزبادى مثلاً تأتى بالحليب ، ثم تضع عليه خميرة زبادى سبق إعداده ، ثم تتركه فى درجة حرارة معينة سبع أو ثمانى ساعات بعدها تجد الحليب قد تحوَّل إلى زبادى ، فهل تقول : إن صناعة الزبادى استغرقت منى سبعاً أو ثمانى ساعات ؟ لا ، إنها استغرقتْ مجرد إعداد المواد اللازمة ، ثم أخذت هذه المواد تتفاعل بعضها ببعض ، إلى أن تحولت إلى المادة الجديدة .

كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ خلق السموات والأرض بأمره (كُنْ) ، فتفاعلت هذه الأشياء مُكوِّنة السماوات والأرض .

ومسألة خلق السموات والأرض فى ستة أيام عُولجت فى سبع سور من القرآن ، أربع منها تكلمْن عن خلق السماوات والأرض ولم تتعرض لما بينهما ، وثلاث تعرضتْ لخَلْق السماوات والأرض وما بينهما ، ففى الأعراف مثلاً ، وفى يونس ، وهود .

والحديد[١] . تعرضت الآيات لخلق السماوات والأرض فقط .

وفى الفرقان والسجدة وق[٢] . فتكلَّمتْ عن البينية ، فكأن السماوات والأرض ظرف خُلق أولاً ، ثم خُلق المظروف فى الظرف ، وهذا هو الترتيب المنطقى أنْ تُعِدَّ الظرفَ أولاً ، ثم تضع فيه المظروف .

وقوله تعالى : ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٤)﴾ [السجدة] الله يخاطب بهذه الآيات العرب ، واليوم له مدلول عند العرب مرتبط بحركة الشمس والقمر ، فكيف يقول سبحانه ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٤)﴾ [السجدة] ولم تخلق بعد لا الشمس ولا القمر ؟

نقول : المعنى خلقها فى زمن يساوى ستة أيام بتقديرنا نحن الآن ، وإلا فاليوم عند الله تعالى يختلف عن يومنا ، ألم يقل سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج] أى : فى الدنيا .

وقال عن اليوم فى الآخرة : ﴿تَعْرُجُ[٣] الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ

---

(١) هذه الآيات الأربعة هى :

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤)﴾ [الأعراف]
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٣)﴾ [يونس]
- ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٧)﴾ [هود]
- ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٤)﴾ [الحديد]

(٢) أما الآيات التى أضيف فيها ما بين السماوات والأرض فهى :

- ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٩)﴾ [الفرقان]
- ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٤)﴾ [السجدة]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٣٨)﴾ [ق]

(٣) عرج يعرج : صعد وعلا وارتفع . [القاموس القويم ٢/١٣] .

كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ ﴾ [المعارج] فلله تعالى تقدير لليوم فى الدنيا ، ولليوم فى الآخرة .

والحق سبحانه لم يُفصِّل لنا مسألة الخَلْق هذه إلا فى سورة (فُصِّلَت) فهى التى فصَّلَتْ القول فى خَلْق السماوات والأرض ، وهذه من عجائب هذه السورة .

فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ⑩ ﴾ [فصلت] هذه ستة أيام .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. ⑫ ﴾ [فصلت] وهكذا يصبح المجموع ثمانية أيام .

إذن : كيف نُوفِّق بين ستة أيام فى الإجمال ، وثمانية أيام فى التفصيل ؟ قالوا : الأعداد يُحمل مُجْملها على مفصَّلها ؛ لأن المفصَّل تستطيع أن تضم بعضه إلى بعض ، أما المجمل فهو النهاية .

وأعِدْ معى قراءة الآيات :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ⑩ ﴾ [فصلت] وهذا كله من لوازم الأرض ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ⑩ ﴾ [فصلت] أى : أن هذه اللوازم تابعة لما قبلها .

فالمعنى : فى تتمة أربعة أيام ، فاليومان الأولان داخلان فى الأربعة ، كما لو قلت : سِرْتُ من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الإسكندرية فى ساعتين ، فالساعة الأولى محسوبة من هاتين الساعتين .

فالحق سبحانه خلق الأرض فى يومين ، وخلق ما يلزمها فى تتمة الأربعة الأيام ، فالزمن تتمة للزمن ؛ لأن الحدث يُتمِّم الحدث ، إذن : المحصلة النهائية ستة أيام ، وليس هناك خلاف بين الآيات ﴿ولَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء] ومن العجيب أن يأتى هذا التفصيل فى (فُصِّلَت) .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٤)﴾ [السجدة] الحق - تبارك وتعالى - يخاطب الخَلْق بما يُقرِّب الأشياء إلى أذهانهم ؛ لأن الملوك أو أصحاب الولاية فى الأرض لا يستقرون على كراسيهم إلا بعد أنْ يستتبَّ لهم الأمر .

فمعنى ﴿اسْتَوَىٰ .. (٤)﴾ [السجدة] صعد وجلس واستقر ، كل هذه المعانى تناسب الآية ، لكن فى إطار قول الحق سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

فكما أن لله تعالى وجوداً ليس كوجودك ، وسَمْعاً ليس كسمعك ، وفعلاً ليس كفعلك ، فكذلك له سبحانه استواء ، لكن ليس كاستوائك ، وإذا دخلت حجرة الجلوس مثلاً عند شيخ البلد وعند العمدة والمحافظ ورئيس الجمهورية ستجد مستويات متباينة ، كلٌّ على حسب ما يناسبه ، فإذا كان البشر يتفاوتون فى الشىء الواحد ، فهل نُسوِّى بيننا وبين الخالق عز وجل ؟

فالمعنى إذن ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٤)﴾ [السجدة] استتبَّ له أمر الخَلْق ، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ .. (٤)﴾ [السجدة] الوليُّ : مَنْ يليك ، ويكون قريباً منك ، وإليه تفزع فى الأحداث ، فهو ملجؤك الأول . والشفيع : الذى يشفع لك عند مَنْ يملك أمرك ، فالوليُّ هو الذى ينصرك بنفسه ، أمَّا الشفيع فهو يتوسط لك عند مَنْ

ينصرك ، فليس لك وليٌّ ولا شفيع من دون الله عز وجل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] فلا أحدَ ينجيكم ، ولا أحدَ يُسْعفكم إلا الله ﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) ﴾ [السجدة]

كأن هذه المسألة يجب أنْ تكون على بالك دائماً ، فلا تغفل عن الله ؛ لأنك ابْنُ أغيار ، والأحداث تتناوبك ، فلا يستقرّ بك حال ، فأنت بين الغنَى والفقر ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف .

لذلك تذكَّر دائماً أنه لا وليَّ ولا نصيرَ لك إلا الله ، وإذا استحضرتَ ذلك دائماً اطمأنَّ قلبك ، ولم لا وأنت تستند إلى وليٍّ وإلى نصير لا يخذلك أبداً ، ولا يتخلى عنك لحظة ، فإذا خالط هذا الشعورُ قلبَك أقبلتَ على الأحداث بجسارة ، وإذا أقبلتَ على الحدث بجسارة لم يأخذ الحدث من قوتك شيئاً ؛ لأن الذي يخاف الأحداث يُضعف قوته الفاعلة .

فمثلاً صاحب العيال الذي يخاف الموت فيتركهم صغاراً لا عائلَ لهم لو راجع نفسه لقال لها : ولِمَ الخوفُ على العيال من بعدي ، فهل أنا خلقتهُم ، أم لهم خالق يرعاهم ويجعل لهم من المجتمع الإيماني آباءً متعددين ؟ لو قال لنفسه ذلك ما اهتم لأمرهم ، وصدَق الذي قال مادحاً : أنتَ طِرْتَ باليُتْم إلى حَدِّ الكَمالِ

وقال آخر :

* قَال ذُو الآبَاءِ لَيْتى لاَ أبَا لِى *

ولِمَ لا ؟ وقد كفل الإسلام للأيتام أنْ يعيشوا في ظل المجتمع المسلم أفضل مما يعيش مَنْ له أب وأم .

إذن : فالإنسان حينما يعلم أن له سنداً من ألوهية قادرة وربوبية لا تُسلمه يستقبل الحوادث بقوة ، ويقين ، ورضا ، وإيمان بأنه لن يُسْلَم أبداً ما دام له إيمان برب ، وكلمة رب هذه ستأتى على باله قَسْراً فى وقت الشدة ، حين يخذله الناس وتُعْييه الأسباب ، فلا يجد إلا الله - حتى لو كان كافراً لقال فى الشدة : يا رب .

وقوله تعالى ﴿ مِن دُونِهِ .. ④ ﴾ [السجدة] يعنى : لا يوجد غيره ، وإنْ وُجِد غَيْرٌ فبتحنين الله للغير عليك ، فالخير أياً كان فمردُّه إلى الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤ ﴾

فى هذه الآية ردٌّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الله تعالى قادر وخالق ، لكنه سبحانه زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وخلق القوانين ، ثم تركها تعمل فى إدارة هذا الكون ، ونقول : لا بل هو سبحانه ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ .. ⑤ ﴾ [السجدة] أى : أمْر الخَلْق ، وهو سبحانه قيُّوم عليه .

وإلا فما معنى ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ .. ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] إن قُلْنا بصحة ما تقولون ؟ بل هو سبحانه خلق الكون ، ويُدبِّر شئونه على عينه عز وجل ، والدليل على قيوميته تعالى على خَلْقه أنه خلق الأسباب على رتابة خاصة ، فإذا أراد سبحانه خَرْق هذه الرتابة

بشواذ تخرج عن القوانين المعروفة كما خرق لإبراهيم - عليه السلام - قانون الإحراق ، وكما خرق لموسى - عليه السلام - قانون سيولة الماء ، ومسألة خَرْق القوانين فى الكون دليل على قيوميته تعالى ، ودليل على أن أمر الخَلْق ما يزال فى يده سبحانه .

ولو أن المسألة كما يقول الفلاسفة لكان الكون مثل المنبه حين تضبطه ثم تتركه ليعمل هو من تلقاء نفسه ، ولو كان الأمر كذلك لانطفأتْ النار التى أُلقِى فيها إبراهيم عليه السلام مثلاً .

لذلك لما سُئِل أحد العارفين عن قوله تعالى : ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** (٢٩) ﴾ [الرحمن] ما شأن ربك الآن ، وقد صحَّ أن القلم قد جفَّ ؟ قال : أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ويضع آخرين[1] .

إذن : مسألة الخَلْق إبداء لا ابتداء ، فأمور الخَلْق مُعدَّة جاهزة مُسْبقاً ، تنتظر الأمر من الله لها بالظهور .

وقلنا هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٨٢) ﴾ [يس] فكلمة ﴿ **يَقُولَ لَهُ** .. (٨٢) ﴾ [يس] تدل على أن هذا الشىء موجود بالفعل ينتظر أنْ يقول الله له : اظهر إلى حيِّز الوجود .

---

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قول الله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] قال : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويُفرِّج كرباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين » قال السيوطى فى الدر المنثور (٧/٦٩٩) : « أخرجه الحسن بن سفيان فى مسنده والبزار وابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه والبيهقى فى شُعَب الإيمان وابن عساكر » .

فالحق سبحانه ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ .. (٥) ﴾ [السجدة] ثم تعود إليه سبحانه النتائج ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ .. (٥) ﴾ [السجدة] فالله سبحانه يرسل إلى الأرض ، ثم يستقبل منها ؛ لأن المدبِّرات أمراً من الملائكة لكل منهم عمله واختصاصه ، وهذه المسألة نسميها فى عالمنا عملية المتابعة عند البشر ، فرئيس العمل يكلف مجموعة من موظفيه بالعمل ، ثم لا يتركهم إنما يتابعهم ليستقيم العمل ، بل ويحاسبهم كلاً بما يستحق .

والملائكة هى التى تعرج بالنتائج إليه سبحانه ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ﴾ [السجدة] فالعود سيكون للملائكة ، وخَطْو الملائكة ليس كخَطْوك ؛ لذلك الذى يعمله البشر فى ألف سنة تعمله الملائكة فى يوم .

ومثال ذلك ما قرأناه فى قصة سليمان - عليه السلام - حين قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل]

وهذا الطلب من سليمان - عليه السلام - كان على ملأ من الإنس والجن ، لكن لم يتكلم بشرىٌّ ، ولم يتصدَّ أحد منهم لهذا العمل ، إنما تصدَّى له عفريت ، وليس جنِّياً عادياً ، والعفريت جنى ماهر له قدراته الخاصة ، وإلا ففى الجن أيضاً من هو (لبخة) لا يجيد مثل هذه المهام ، كما فى الإنسان تماماً .

قال العفريت : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [النمل] وهذا يعنى أنه سيستغرق وقتاً ، ساعة أو ساعتين ، أما الذى عنده علم من الكتاب ، فقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

يعنى : فى طرفة عين لما عنده من العلم ؛ لذلك لما رأى سليمانُ العرشَ مستقراً عنده فى لمح البصر ، قال : ﴿قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]

إذن : الفعل يستغرق من الزمن على قَدْر قوة الفاعل ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا على الإسراء والمعراج .

ومعنى : ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة] أى : من سنينكم أنتم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ .. ﴿٦﴾﴾ [السجدة] إشارة إلى تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم متابعة الأمر ونتائجه ، هذا كله لأنه سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. ﴿٦﴾﴾ [السجدة] وأنه سبحانه ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ [السجدة] فالحق سبحانه يُعلِّمنا أن الأمر لا بد أنْ يتابع المأمور .

وقلنا : إن عالم الغيب تعنى أنه بالأَوْلى يعلم الشهادة ، لكن ذكر الحق سبحانه علمه بالشهادة حتى لا يظن أحد أن الله غَيْب ، فلا يعلم إلا الغيب ، وقد بيَّنا معنى الشهادة هنا حينما تكلَّمنا عن قَوْل الله تعالى : ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء]

والجهر أو الشهادة يعنى الجهر المختلط حين تتداخل الأصوات ، فلا تستطيع أنْ تُميِّزها ، مع أنها جهر أمامك وشهادة ، أما الحق سبحانه فيعلم كل صوت ، ويردُّه إلى صاحبه ، فعلْم الجهر هنا أقوى من علم الغيب .

ومعنى ﴿ الْعَزِيزُ .. ⟨٦⟩ ﴾ [السجدة] أى : الذى لا يُغلَب ولا يُقهر ، فلا يلويه أحد عن علمه ، ولا عن مراداته فى كَوْنه . ومع عِزَّته فهو سبحانه (الرحيم) .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ⟨٧⟩ ﴾

الخَلْق إيجاد من عدم بحكمة ، ولغاية ومهمة مرسومة ، وليس عَبَثاً هكذا يخلق الأشياء كما اتفق ، فالخالق ـ عز وجل ـ قبل أنْ يخلق يعلم ما يخلق ، ويعلم المهمة التى سيؤديها ؛ لذلك يخلق سبحانه على مواصفات تحقق هذه الغاية ، وتؤدى هذه المهمة .

وقد يُخيَّل لك أن بعض المخلوقات لا مهمةَ لها فى الحياة ، أو أن بعضها كان من الممكن أنْ يُخلَق على هيئة أفضل مما هى عليها .

ونذكر هنا الرجل الذى تأمل فى كون الله فقال : ليس فى الإمكانِ أبدعُ مما كان . والولد الذى رأى الحداد يأخذ عيدان الحديد المستقيمة ، فيلويها ويُعْوجها ، فقال الولد لأبيه : لماذا لا يترك الحداد عيدان الحديد على استقامتها ؟ فعلَّمه الوالد أن هذه العيدان لا تؤدى مهمتها إلا باعوجاجها ، وتأمل مثلاً الخطَّاف وآلة جمع الثمار من على الأشجار ، إنها لو كانت مستقيمة لما أدَّتْ مهمتها .

وفى ضوء هذه المسألة نفهم الحديث النبوى الذى قال فيه النبى ﷺ ـ عن النساء : « إنهن خُلِقْنَ من ضلع ، وإن أعوج ما فى

الضلع أعلاه ، فإنْ ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإنْ تركته لم يَزَلْ أعوج ، فاستوصوا بالنساء »[١] .

وحين تتأمل الضلوع في قفصك الصدرى تجد أنها لا تؤدى مهمتها فى حماية القلب والرئتين إلا بهذه الهيئة المعْوَجة التى تحنو على أهم عضوين فى جسمك ، فكأن هذا الاعوجاج رأفة وحُنُو وحماية ، وهكذا مهمة المرأة فى الحياة ، ألاَ تراها فى أثناء الحمل مثلاً تترفق بحملها وتحافظ عليه ، وتحميه حتى إذا وضعتْه كانت أشدَّ رفقاً ، وأكثر حناناً عليه ؟

إذن : هذا الوصف من رسول الله ليس سُبَّة فى حق النساء ، ولا إنقاصاً من شأنهن ؛ لأن هذا الاعوجاج فى طبيعة المرأة هو المتمم لمهمتها : لذلك نجد أن حنان المرأة أغلب من استواء عقلها ، ومهمة المرأة تقتضى هذه الطبيعة ، أما الرجل فعقله أغلب ليناسب مهمته فى الحياة ، حيث يُنَاط به العمل وترتيب الأمور فيما وُلِّى عليه .

إذن : خلق الله كلاً لمهمة ، وفى كل منَّا مهما كان فيه من نقص ظاهر - مَيْزة يمتاز بها ، فالرجل الذى تراه لا عقلَ له ولا ذكاءَ عنده تقول : ولماذا خلق الله مثل هذا ؟ لكن تراه قوىَّ البنية ، يحمل من الأثقال والمشاقّ ما لا تتحمله أنت ، والرجل القصير مثلاً ، ترى أنت عيبه فى قِصَر قامته ، لكن يراها غيرك ميزة من مزاياه ، وربما استدعاه للعمل عنده لهذه الصفة فيه .

وحين تتأمل مثلاً عملية التعليم ، وتقارن بين أعداد التلاميذ فى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال النووى فى شرحه لمسلم : « يعنى أنها خُلقت من أعوج أجزاء الضلع ، فلا يتهيأ الانتفاع بها إلا بالصبر على تعوجها » .

المرحلة الابتدائية ، وكم منهم يصل إلى مرحلة التعليم العالى ؟ وكم منهم يتساقطون فى الطريق ؟ ولو أنهم جميعاً أخذوا شهادات عليا لما استقام الحال ، وإلاَّ فمَنْ للمهن المتواضعة والحرف وغيرها ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يوجد هذا التفاوت ؛ لأن العقل الواحد يحتاج إلى آلاف ينفذون خطته ، وقيمة كل امرىء ما يُحسنه مهما كان عمله .

لذلك قلنا : إنه لا ينبغى لأحد أنْ يتعالى على أحد ؛ لأنه يمتاز عنه فى شىء ما ، إنما ينظر فيما يمتاز به غيره ؛ لأن الخالق عز وجل وزَّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ويكفى أن تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فالله تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ .. (٧) ﴾ [السجدة] لأن لكل مخلوق مهمة مُهيَّأ لها ، وتعجب من تصاريف القدر فى هذه المسألة فتجد أخوين ، يعمل أحدهما فى العطور ، ويعمل الآخر فى الصرف الصحى ، وتجد هذا راضياً بعمله ، وهذا راضٍ بعمله .

حتى أنك تجد الناس الذين خلقهم الله على شىء من النقص أو الشذوذ حين يرضى الواحد منهم بقسمة الله له وقدره فيه يسود بهذا النقص ، أو بهذا الشذوذ ، وبعضنا لاحظ مثلاً الأكتع إذا ضرب شخصاً بهذه اليد الكتعاء ، كم هى قوية ! وكم يخافه الناس لأجل قوته ! وربما يجيد من الأعمال ما لا يجيده الشخص السَّوى .

فإنْ قلتَ : إذا كان الخالق سبحانه أحسن كل شىء خلقه ، فما بال الكفر ، خلقه الله وما يزال موجوداً ، فأىُّ إحسان فيه ؟

نقول : والله لولا طغيان الكافرين ما عشق الناسُ الإيمانَ ، كما أنه لولا وجود الظلم والظالمين لما شعر الناس بطَعْم العدل . إذن :

فالحق سبحانه يخلق الشيء ، ويخلق من ضده دافعاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝ ﴾ [السجدة] فالإنسان الذى كرَّمه الله على سائر المخلوقات بدأه الله من الطين ، وهو أدنى أجناس الوجود ، وقلنا : إن جميع الأجناس تنتهى إلى خدمة الإنسان : الحيوان وهو أقربها للإنسان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، ومن الجماد خُلق الإنسان .

وقد عوَّض الله عز وجل الجماد الخادم لباقى الأجناس حين أمر الإنسان المكرَّم بأنْ يُقبِّله فى فريضة كُتبت عليه مرة واحدة فى العمر ، وهى فريضة الحج ، فأمره بأن يُقبِّل الحجر الأسود ، وأنْ يتعبد لله تعالى بهذا التقبيل ؛ لذلك يتزاحم الناس على الحجر ، ويتقاتلون عليه ، وهو حجر ، وهم بشر كرَّمهم الله ، وما ذلك إلا ليكسر التعالى فى النفس الإنسانية ، فلا يتعالى أحد على أحد .

وسبق أنْ بيَّنا أن المغرضين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله قالوا : إن الله تعالى قال فى مسألة الخَلْق مرة ﴿ مِن مَّاءٍ .. ۝ ﴾ [المرسلات] ومرة ﴿ مِن تُرَابٍ .. ۝ ﴾ [الكهف] ومرة ﴿ مِّن طِينٍ ۝ ﴾ [المؤمنون] ومرة ﴿ مِن صَلْصَالٍ .. ۝ ﴾ [الحجر] ومرة ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ ﴾ [الحجر] .. الخ ، فأىُّ هذه العناصر أصل للإنسان ؟

وقلنا : إن هذه مراحل مختلفة للشيء الواحد ، والمراحل لا تقتضى النية الأولية ، فالماء والتراب يُكوِّنان الطين ، فإذا تُرك الطين حتى تتغير رائحته فهو الحمأ المسنون ، فإذا تُرك حتى يجفَّ ويتجمد فهو الصلصال ، فهذه العناصر لا تعارضَ بينها ، ويجوز لك أنْ تقول : إن الإنسان خُلق من ماء ، أو من تراب ، أو من طين ... الخ .

والمراد هنا الإنسان الأول ، وهو سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ ثم

أخذ الله سلالته من ماء مهين ، والسلالة هى خلاصة الشىء ، فالخالق سبحانه خلقنا أولاً من الطين ، ثم جعل لنا الأزواج والتناسل الذى نتج عنه رجال ونساء .

ثم يحتفظ الخالق سبحانه لنفسه بطلاقة القدرة فى هذه المسألة ، وكأنه يقول لك : إياك أنْ تفهم أننى لا أخلق إلا بالزوجية ، إنما أنا أستطيع أنْ أخلق بلا زوجية كما خلقْتُ آدم ، وأخلق من رجل بلا امرأة كما خلقتُ حواء ، وأخلق من امرأة بلا رجل كما خلقتُ عيسى عليه السلام .

وقد تتوفر علاقة الزوجية ويجعلها الله عقيماً لا ثمرةَ لها ، وهكذا تناولت طلاقة القدرة كل ألوان القسمة العقلية فى هذه المسألة ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿ **لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ** (٤٩) **أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** (٥٠) ﴾ [الشورى]

إذن : هذه مسألة طلاقة قدرة للخالق سبحانه ، وليست عملية (ميكانيكية) ، لأنها هبَة من الله ﴿ **يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا** .. (٤٩) ﴾ [الشورى] ولاحظ أن الله قدَّم هنا الإناث ، وهم الجنس الذى لا يفضِّله الناس أن يُولد لهم ، ولكن تجد الذى يرزقه الله بالبنت فيفرح بها ، ويعلم أنها هِبَة من الله يُعوِّضه الله بزوج لها يكون أطوعَ له من ولده .

كما أنه لو رضى صاحب العُقْم بعُقْمه ، وعلم أنه هِبَة من الله لَعوَّضه الله فى أبناء الآخرين ، وشعر أنهم جميعاً أبناؤه ، ولماذا نقبل هبة الله فى الذكور وفى الإناث ، ولا نقبل العقم ، وهو أيضاً هبة الله ؟

ثم ألستَ ترى من الأولاد مَنْ يقتل أباه ، ومَنْ يقتل أمه ؟ إذن :

المسألة تحتاج منّا إلى الرضا والتسليم والإيمان بأن العُقْم هبة ، كما أن الإنجاب هبة .

ثم إن خَلْق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين جاء من البداية على صورته التامة الكاملة ، فخلقه الله رجلاً مستوياً ، فلم يكُنْ مثلاً طفلاً ثم كبر وجرتْ عليه سنة التطور ، لا إنما خلقه الله على صورته ، أى : على صورة آدم .

والبعض يقول : خلق الله آدم على صورته أى على صورة الحق[1] ، فالضمير يعود إلى الله تعالى ، والمراد : على صورة الحق لا على حقيقة الحق ، فالله تعالى حيٌّ يَهَب من حياته حياة ، والله قوى يهَبُ من قوته قوة ، والله غنيٌّ يهب من غنَاه غِنى ، والله عليم يَهَبُ من علمه علماً .

لذلك قيل : « تخلَّقوا بأخلاق الله » ؛ لأنه سبحانه وهبكم صفات من صفات تجلِّيه ، وقد وهبكم هذه الصفات ، فاجعلوا للصفة فيكم مزية وتخلَّقوا بها ، فمثلاً كُنْ قوياً على الظالم ، ضعيفاً متواضعاً للمظلوم ، على حَدِّ قول الله تعالى فى صفات المؤمنين :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

وهذه الصفات المتناقضة تجتمع فى المؤمن ؛ لأنه ليس له طبع واحد ، إنما الموقف والتكليف هو الذى يصبغه ويلويه إلى الصفة المناسبة .

---

(١) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٢٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٤١) أى : خلقه على صورته التى استمر عليها إلى أن أُهْبِطَ وإلى أن مات ، دفعاً لتوهم من يظن أنه لما كان فى الجنة كان على صفة أخرى (نقله ابن حجر فى فتح البارى ٣/١١) .

وقلنا : إن علماء التحاليل فى معاملهم أثبتوا صدْق القرآن فى هذه الحقيقة ، وهى خَلْق الإنسان من طين حينما وجدوا أن العناصر المكوِّنة لجسم الإنسان هى ذاتها العناصر الموجودة فى التربة ، وعددها ١٦ عنصراً ، أقواها الأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النيتروجين ، ثم الصوديوم ، ثم الماغنسيوم ، ثم البوتاسيوم .. الخ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾

النسل هو الأنجال والذرية . والسلالة : خلاصة الشىء تُسلُّ منه كما يُسلُّ السيف من غمده ، فالسلالة هى أجود ما فى الشىء ، ولذلك نقول : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعنى : فى مقام المدح . حتى فى الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها .

هذا النسل وهذه السلالة خلقها الله من ماء ، وهو منىُّ الرجل وبويضة المرأة .

هذا الماء وصفه الله بأنه ﴿ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ [السجدة] لأنه يجرى فى مجرى البول ، ويذهب مذهبه إذا لم يصل إلى الرحم ، وفى هذا الماء المهين عجائب ، ويرحم الله العقاد(١) حين قال : إن أصول ذرات العالم

---

(١) هو : عباس محمود إبراهيم العقاد ، أصله من دمياط بمصر ، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى ، وكان أحدهم يعمل فى « عقادة الحرير » فعرف بالعقاد ولد بأسوان عام ١٨٨٩ من أم كردية ، تعلم فى مدرستها الابتدائية ، وكان موظفاً بالسكة الحديد وبوزارة الأوقاف بالقاهرة ثم معلماً فى بعض المدارس الأهلية وانقطع إلى الكتابة فى الصحف والتأليف ، ظل اسمه لامعاً مدة نصف قرن ألف خلالها ٨٣ كتاباً أشهرها العبقريات . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٤ عن ٧٥ عاماً [الأعلام ٣/٢٦٦] .